البراهين الفلسفية على وجود الله عند ديكارت "دراسة نقدية"

د. حماد بن زكي الحماد
الأستاذ المساعد في قسم الثقافة الإسلامية بجامعة حائل
(المملكة العربية السعودية)
hmzasa2017@gmail.com

تاريخ تسلم البحث: ٢٠٢٣/٣/١٤م تاريخ قبول البحث: ٢٠٢٣/٣/٢٩م

Doi: 10.52840/1965-010-003-018

الملخص :

يتناول البحث البراهين الفلسفية على وجود الله عند ديكارت دراسة نقدية، ويهدف إلى بيان أدلة الفيلسوف ديكارت التي استدل بها على وجود الله وكانت مثار جدل بين المفكرين والباحثين بين مؤيد ومعارض وناقد.

يقوم البحث على المنهج الوصفي التحليلي القائم على الاستقراء والنقد وذلك باستقراء براهين ديكارت على وجود الله من كتبه، ثم المنهج النقدي وفق عقيدة أهل السنة والجماعة وتم تقسيم البحث إلى: تمهيد، ومبحثين، تم في التمهيد التعريف المجمل بديكارت وفلسفته، وفصل المبحث الأول براهين ديكارت على وجود الله، فيما بين المبحث الثاني الموقف من براهين ديكارت.

وقد توصل البحث في أهم نتائجه إلى أن دليل ديكارت على وجود الله دليل صحيح لا إشكال فيه في الجملة، ولكن الإشكال الأكبر في حصره طرق الاستدلال على وجود الله في دليله الوحيد، وفي منهجه الفلسفي المتضمن للشك في الحواس وفي كيفية إثبات العالم الخارجي، مما جعله يسلك هذا الطريق المعقد البعيد، ويعرض عن الطرق الواضحة البينة.

كما أوصى البحث بدراسة مواقف بعض الفلاسفة المحدثين من مسألة الوجود الإلهي، وبيان ما لها وما عليها، مثل موقف: أنسلم، وكانت، وغيرهما.

الكلمات المفتاحية: ديكارت – البراهين الفلسفية- وجود الله.

Philosophical Proofs on the Existence of God According to Descartes

"A Critical study"

Dr. Hammad bin Zaki Al-Hammad

Assistant Professor in the Department of Islamic Culture, University of Hail

(Saudi Arabia)

hmzasa2017@gmail.com

Date of Receiving the Research: 14/3/2023 **Research Acceptance Date:** 29/3/2023

Doi: 10.52840/1965-010-003-018

Abstract:

The research deals with the philosophical proofs on the existence of God according to Descartes, a critical study, and aims at displaying the philosopher Descartes' proofs on the existence of God that aroused controversy among philosophers and researchers who split between supporters, contradictors and critics.

The research adopts the descriptive analytical approach based on induction and criticism, by extrapolating Descartes' proofs on the existence of God from his books, then the critical approach according to the belief of Ahl Al-Sunnah and Consensus.

The research is divided into an introduction and two chapters. In the introduction, the general presentation of Descartes and his philosophy is carried out. The first chapter details Descartes' proofs on the existence of God, while the second chapter shows the position on the proofs of Descartes.

The research concludes with its most important results that Descartes' evidence on the existence of God is correct evidence and there is no trick in it in general, but the biggest problem is in limiting the methods of inference to the existence of God in his only evidence, and in his philosophical approach that includes doubt in the senses and in how to prove the external world, which made him take an extreme, complicated path, and turned him away from the clear paths.

The research also recommends studying the positions of some modern philosophers on the issue of divine existence, and displaying their pros and their cons, such as the position of: Anselm, Kant, and others.

Keywords: Descartes - philosophical proofs - the existence of God.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن أعظم مسألة تتعلق بدين الله -تعالى- مسألة إثبات وجود الله، فهي جوهر النزاع بين سائر الاتجاهات الفطرية الإيمانية والاتجاهات العدمية الإلحادية، وإن وجود الله -تعالى- قضية ظاهرة كل الظهور، وواضحة كل الوضوح، والبراهين على وجوده أكثر من أن تحصر؛ ففي كل شيء له آية، وفي كل مخلوق دلالة على كماله وعظمته.

ولكن اقتضت حكمة رب العالمين أن الشياطين تستزل الناس عن دينهم وتحرفهم عن فطرهم، وأن الإنسان مطبوع على الجهل والظلم، والمكابرة والجحود، كما قال الله -تعالى- عن الإنسان: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [سورة الأحزاب:٧٢]، وهذه الصوارف صرفت بعض البشر عن الحق، وطمست على أعينهم فلم يبصروا الواضحات، حتى وقع بعضهم في وحل التشكيك في وجود الله، ومنهم من أنكر وجوده وكابر في الاعتراف بربوبيته، معرضًا عن صوت الفطرة الصارخ، ودواعي الإيمان القاهرة!

وقد كان للفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت عناية بالغة بمسألة إثبات وجود الله، والبرهنة على كماله بطريقة عقلية فلسفية اشتهرت عنه وصارت تقرن إلى اسمه، وهي طريقة يحفها كثير من الغموض والتعقيد؛ لذلك اختلف في وصفها المفكرون والباحثون، كما اختلفوا في الحكم عليها من حيث الصواب أو عدمه، والقوة أو الضعف.

ويسعى هذا البحث إلى كشف براهين ديكارت على وجود الله، وبيان منهجه في الاستدلال والبرهنة، ودراسة مواقف الباحثين والمفكرين من هذه البراهين الفلسفية، ونقد ذلك بعلم وعدل إن شاء الله.

- أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في تعلقه بمسألة وجود الله -تعالى- التي هي أعظم المسائل، وفي تعلقه بالفيلسوف ديكارت الذي يعتبر من أعظم الفلاسفة في العصر الحديث، وفي غرابة الأدلة التي جاء بها على وجود الله حتى أصبحت مثارًا للجدل والنقاش.

- أسباب اختيار الموضوع:

١- أهمية مسألة وجود الله وأدلتها.
٢- مكانة ديكارت العظيمة في الفلسفة الحديثة.
٣- اختلاف الباحثين في فهم دليله وفي الموقف منه.
٤- غرابة براهين ديكارت وتفرده بها وسلوكه غير السبل المشهورة.

- .مشكلة البحث:

يسعى البحث لبيان موقف ديكارت من وجود الله ومحاولة رفع الخلاف الحاصل حول أصالة أدلتها من عدمها، وصوابها من خطئها.

- أهداف البحث:

١- شرح منهج ديكارت في البرهنة على وجود الله.
٢- بيان مواقف المفكرين والباحثين منه.
٣- بيان الموقف الشرعي من براهين ديكارت.
٤- نقد الثغرات المنهجية في منهج ديكارت.

- الدراسات السابقة:

ثمة دراسة ذات صلة بموضوع البحث، وهي "الإنسان والله في فلسفة ديكارت: دراسة نقدية في رؤية العلامة السيد محمد حسين الطبطبائي"، للباحث علي أصغر مصلح، من نشر مجلة الاستغراب، العدد ٢٤، ٢٠٢١م، والبحث يختلف عن بحثي بأمرين جوهريين، سوى الأمور الفرعية، وهما:

١- أن البحث ليس متجهًا للبحث في فلسفة ديكارت، ولا في كتبه وكلامه من حيث الإساس، وإنما لدراسة ذلك من منظور معين، وهو رؤية السيد محمد حسين الطبطبائي، في حين أن بحثي سيتجه إلى مؤلفات ديكارت مباشرة من دون سيط، لمحاولة بيان موقفه من مسألة الوجود الإلهي.
٢- أن البحث شامل لما يتعلق بموقف ديكارت من الإنسان والطبيعة والإله، وليس خاصًا بمناقشة أدلة ديكارت على وجود الله، والتي لم يعرض لها البحث المذكور إلا بطريق الاختصار، دون تفصيل في أصالة أدلة ديكارت من عدمها، ودون كشف لأوجه الاستدلال عند ديكارت، مع بيان ما فيها من صواب أو خطأ.

منهج البحث:

المنهج المتبع في البحث هو المنهج الوصفي التحليلي القائم على الاستقراء والنقد باستقراء براهين ديكارت على وجود الله من كتبه، ثم المنهج النقدي وفق عقيدة أهل السنة والجماعة.

- حدود البحث:

سيكون هذا البحث في أدلة ديكارت الفلسفية علي وجود الله من خلال كتبه، ودراسة ما ذكره المفكرون والباحثون من خلال كتب الفلسفة والعقائد.

- خطة البحث:

ويتكون البحث من مقدمة، وفيها فكرة البحث، وأهميته، وأسباب اختياره، وأهدافه، وحدوده ، ومنهج البحث، وخطته، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، على النحو الآتي:

تمهيد، وفيه:

أولًا: التعريف المجمل بديكارت.

ثانيًا: جوهر فلسفة ديكارت.

المبحث الأول: براهين ديكارت على وجود الله.

المبحث الثاني: الموقف من براهين ديكارت.

الخاتمة وفيها أهم نتائج البحث وتوصياته.

وقد وضع الباحث في آخر البحث قائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمد عليها.

تمهيد

أولًا: التعريف المجمل بديكارت(١):

ولد ديكارت في ٣١ مارس من سنة ١٥٩٦م، بقرية "لاهاي" وهي إحدى القرى التابعة لمقاطعة "تورين" بفرنسا، وقد فقد أمه وهو ابن سنة، وعاش تحت رعاية أبيه وأخوته، ويمكن إجمالًا القول بأن حياة رينيه ديكارت مرت بثلاث مراحل مفصلية، بيانها على النحو الآتي:

المرحلة الأولى: مرحلة النشأة الأولى:

وأبرز ما جرى في هذه المرحلة أنه التحق بمدرسة "لافليش" عام ١٦٠٦م، أي عندما كان ابن عشر سنين، وكانت هذه المدرسة من أهم مدارس أوربا، وفيها تعلم كل العلوم الضرورية لتكوين ثقافته، فكان مما درسه فيها: الآداب واللغات، والتاريخ والجغرافيا، والرياضيات والفلك، والطب والتشريح، واللاهوت والفلسفة، حتى نال الماجستير في الآداب والليسانس في الحقوق، قبل تمامه العشرين سنة.

المرحلة الثانية: مرحلة الشتات وعدم القناعة بما درس في نشأته:

وأبرز ما في هذه المرحلة أن ديكارت بدأ يشك في كل ما درسه وتعلمه، ويرى عدم جدواه وقلة فائدته، وأكثر من السفر والترحال، لزيادة معارفه والبحث عن ما يشغل ذهنه من مسائل فكرية ومشكلات فلسفية، فأخذ يجوب في شتى بقاع الأرض، ويتردد على مواطن المعرفة، ويبحث عن إشباع نهمه العلمي وقضاء لبانته المعرفية، فكان من البلاد التي سافر إليها:

١- هولندا.
٢- ألمانيا.
٣- إيطاليا.
٤- سويسرا.

وقد قضى في هذه المرحلة اكثر من عشر سنوات، كان السفر فيها أعظم متمم لثقافته، ومنضج لآرائه، ومفجر لعقله وتجاربه.

المرحلة الثالثة: مرحلة الاستقرار:

وقد كانت في هولندا؛ حيث طاب لديكارت المقام فيها بعد أسفار طويلة وتنقلات متصلة، ونشد فيها الأمان والسكون، ومكث فيها عشرين سنة لا يغادرها إلا إلى فرنسا في رحلات قصيرة، وهذه الفترة هي التي دون فيها أغلب مؤلفاته، وجادل المعترضين وأجاب، وأسس لفلسفة صارت فيما بعد مدرسة فلسفية كبرى.

ثم ختمت حياة ديكارت سنة ١٦٤٩م حين أراد تحقيق رغبة ملكة السويد التي طلبت منه زيارتها، وألحت في طلبها؛ فحقق لها مبتغاها، ولكنه لم يستطع احتمال أجواء السويد وبردها الشديد القارس، فمات من مرض ألم به سنة ١٦٥٠م.

وتمتاز حياة ديكارت الفكرية بعدة مزايا:

١- شغفه الشديد بالمعرفة وولعه بالاستزادة من أنواع المعارف والفنون، ويظهر هذا جليا في العلوم التي درسها في كتبه، وهو متنوع المعارف ظاهر الشغف.

٢- سعة مذهبه الفلسفي واهتمامه الفكري والمعرفي، فهو كان يريد تأسيس فلسفة شاملة ولم يكن مشغولًا بمشاكل معينة لا يعدوها، كما كان من معاصريه، فمثلًا: بيكون

---

(١) ينظر: موسوعة الفلسفة، د.عبد الرحمن بدوي: (١/٤٨٨-٤٩٠)، تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديمة إلى القرن العشرين، غنار سكيربك، نلز غيلجي: (ص٤٠٩)، تاريخ الفلسفة الحديثة، وليم كلي رايت: **(ص٩٣-٩٣)**، قصة الفلسفة الحديثة، أحمد أمين وزكي نجيب محمود: (١/ ٩٣-٩٧)، تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم: (ص٥٨-٥٩).

شغل بالمنهج وكان محور اهتمامه، وهوبس شغل بالأخلاق ومشكلة السياسة، وراسندي شغل بمشكلة الحركة والتغير، أما ديكارت فقد قصد إلى تأسيس منهج فلسفي شامل في الكون، والإنسان، والإله؛ ولذلك جاءت فلسفته بكل جديد في منهج البحث، وفي النظر إلى الطبيعة والكون؛ وفي البرهنة على وجود الإله(٢).

٣- غلبة روح التجديد والثورة على القديم عليه، فإن ديكارت في مرحلته الثانية من حياته كان غير مقتنع بكل ما تعلمه من فلسفة وأدب وتاريخ، وكان يحتويه الشك في جدوى كل ما تعلم ويقينية معظم ما درس، وهذا دفعه إلى تجشم مصاعب السفر واحتمال متاعبه في سبيل طلب الحقائق وكشف مجاهل العلم والمعرفة، ويمكن الإشارة هنا إلى حدث ذكر من ترجموا له أنه كان له أثر عظيم في فكر ديكارت ومنهجه الفسلفي وأسلوبه في البحث والتحري:

وذلك أن ديكارت حين كان في ألمانيا سنة ١٦١٩م نزل في غرفة دافئة في ذلك الشتاء البارد، وقضى عامة ذلك اليوم في التفكير والنظر في عقله ومعارفه وتجاربة الماضية والعلوم التي درسها، فلما جن عليه الليل ونام انعكس صدى هذه الأفكار التي كانت تضطرم في رأسه ورأى هاتفًا في منامه يدعوه إلى السير في طريقه ويحثه على وضع أسس العلم والفلسفة الحديثة، فاستيقظ ديكارت وقد استقر في ذهنه أن روح الحقيقة قد أمدته بمعالم الطريق ودلته إلى كنوز العلم، فسعى جاهدًا بعد ذلك إلى تحقيق هذا الحلم الخطير، وصار يستحضر دائمًا روح التجديد ويسعى إلى نسف المسلمات القديمة والمعارف الموروثة(٣).

٤- العيش في عصر مضطرب، وفي جو قاتم من طغيان الكنيسة، حتى نال الكثير من معاصريه أذاه، وأبرز مثال على ذلك ما حصل لمعاصره جاليلو الفلكي المشهور الذي اتهم بالإلحاد؛ بسبب مخالفته لما استقر من آراء فلكية، وكان ذلك سببًا لأن يعدل ديكارت عن نشر أحد كتبه بعد أن سبق له الوعد به، وكان دافعًا له أيضًا بأن ينشر بعض كتبه خلوًا من اسمه، قصدًا للسلامة، وإيثارًا لعدم إثارة الرأي العام ضده؛ وهذا ما جعل الفيلسوف برتراند رسل يتهم ديكارت بالجبن(٤).

- أهم مؤلفات ديكارت:

١- مقال عن المنهج:

وهو كتاب يشتمل على مقدمة وثلاث رسائل في: الهندسة، والبصريات، والآثار العلوية، وقد اشتهرت هذه المقدمة شهرة كادت تلغي قيمة تلك الرسائل، وهذه المقدمة هي أشبه بالاعترافات التي كتبها ديكارت توضح منهجه وطريقته في التفكير والبحث، وما مر به من أزمات شكية كادت تعصف به، وأبرز ما يميز هذه المقدمة أنه ذكر فيها القواعد الأربع المنهجية لهداية العقل وإرشاده، وهي(٥):

أ- ألا نقبل شيئًا من الحقائق على أنه حق مطلق إلا إذا تبينا ذلك بوضوح تام لا يتطرق إليه الشك بحال.

ب- أن نقسم المشاكل التي نريد بحثها إلى أجزاء عديدة بحسب ما نستطيع من ضروب القسمة؛ لكي نتمكن من حلها بشكل أمثل.

---

(٢) انظر: دروس في الفلسفة، يوسف كرم، إبراهيم مندور: (ص٢٨٩.).

(٣) انظر: الفلسفة في مسارها، د. جورج زيناتي: (ص١٠٩-١١٠)، تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم: (ص٥٩).

(٤) انظر: تاريخ الفسلفة الحديثة، برتراند رسل: (٩٥/٣).

(٥) انظر: مقال في المنهج، ديكارت: (ص١٣٠).

ت- أن نقود أفكارنا بنظام مرتب، فنبدأ بالأبسط والأسهل وننتهي بالأكبر والأكثر تعقيدًا.
ث- أن نضع إحصاءات شاملة ودقيقة لكي لا نقع في شيء من الغفلة عن أي شيء يتعلق بالمشكلة المراد بحثها.

٢- التأملات في الفلسفة الأولى:

وقد نشر سنة ١٦٤١م، ولعله أهم كتبه وأغزرها من حيث المادة الفلسفية والتأملات المنهجية التي تكشف آراء ديكارت وتعرض لطريقته بوضوح وشمول، وهذه التأملات ستة، هي(٦):

- التأمل الأول: في الأشياء التي يمكن أن توضع موضع الشك.
- التأمل الثاني: في طبيعة النفس الإنسانية.
- التأمل الثالث: في الوجود الإلهي.
- التأمل الرابع: في الصواب والخطأ.
- التأمل الخامس: في ماهية الأشياء.
- التأمل السادس: في وجود الكون والأشياء المادية.

٣- مبادئ الفلسفة:

وقد نشر سنة ١٦٤٤م، ويشتمل على أربعة أجزاء، الأول منها في مبادئ المعرفة، والثلاثة الأخرى في الكون والطبيعة والأجسام بشكل عام(٧).

٤- قواعد لهداية العقل:

وقد نشر بعد وفاته.

٥- رسالة في انفعالات النفس:

وهو مختص بمشكلة الأخلاق.

(٦) انظر: التأملات في الفسلفة الأولى، ديكارت: (ص٥١-٥٦).
(٧) انظر: مبادئ الفلسفة، ديكارت: (ص٥٦.)

ثانيًا: جوهر فلسفة ديكارت

لم يكن ديكارت فيلسوفًا تقليديًا يردد أفكار من سبقوه، أو ينتمي إلى مدرسة فلسفية دون تمحيص أو رغبة في التجديد، بل كان قاصدًا إلى الثورة والتجديد ونسف القديم، وكانت روحه متشبعة بالتمرد على المألوف والنزعة إلى الإتيان بمنهج فلسفي شامل يكون أساسًا لمن يأتي بعده، وقد بلغ ديكارت من ذلك ما أراد حتى سمي "أبا الفلسفة الحديثة"، وكان له أعظم الأثر فيمن جاء بعده، وكانت آراؤه في النفس والمنطق والوجود والطبيعة والإله مثار جدل واسع فيمن جاء بعده، وصارت له مدرسة وأتباع ينتمون إليها ويعرفون بالديكارتيين، وأشهرهم اسنيوزا في هولندا، ومالبرانش في فرنسا وليبنتز في ألمانيا(٨).

ويكمن جوهر فلسفة ديكارت ولبها كما يقول برتراند رسل في "الشك"(٩)؛ حيث عرف ديكارت بمنهجه الشكي ودعوته إليه ومناداته به، وتأسيسه لمنهج في البحث لا يسلم لأي نوع من المعارف إلا بعد الشك فيها، ويمكن بيان الخطوط العريضة لفلسفة ديكارت ببيان موقفه من نظرية المعرفة ومسائلها الكبرى، والتي تعد أهم أركان الفلسفة الحديثة، وبها يتفاوت الفلاسفة في اتجاهاتهم المعرفية وأصولهم المنهجية، وهذه المسائل هي:

١- إمكان المعرفة.
٢- مصادر المعرفة.
٣- طبيعة المعرفة.

فأما ما يتعلق بمسألة إمكان المعرفة فإن ديكارت أشهر من تبنى المذهب الشكي، ولا يكاد يذكر ديكارت إلا مقرونًا اسمه بالشك، وقد حكى هو أساس مذهبه في الشك وبين الخطوات التي قادته إليه في كتبه، ويمكن إيضاح ذلك من خلال النقاط الآتية:

١- ذكر ديكارت أنه تلقى في حياته عددًا من الأفكار وتعلم كثيرًا من العلوم، ولكنه تبين له أن كثيرًا منها باطلة ولم تبن على أساس صحيح؛ فرأى ضرورة إعادة النظر فيها، والشك في مصداقيتها، وأنه لا بد من عرضها على محك النظر، وفق منهج علمي مبني على اليقين(١٠).

٢- ذكر ديكارت أنه تأمل وتفكر فوجد أن أساس معرفته كلها مبني على الحواس، وأن إيمانه الذي يثق به قد تلقاه أيضًا من الحواس، ولكنه عند الامتحان والتدقيق يتبين لنا عدم أهلية الحواس وضعف جدواها وصدقها؛ فهي تخدعنا في بعض الأحيان، وليس من الحكمة أن نركن في معارفنا لمن خدعونا ولو مرة واحدة!(١١).

٣- ذكر ديكارت في بيان دافعه على الشك عدة أمور تؤكد له الشك في الحواس، وأنها خادعة لا ينبغي الاطمئنان إليها، وأبرز ما ذكره مثالين:

أ- أن الحواس تخدعنا في الأشياء الصغيرة جدًا والبعيدة جدًا، وهو يشير بذلك إلى أن العين مثلًا ترى الشمس وهي بعيدة جدًا فتراها صغيرة جدًا، في حين أنها في أضعاف حجم الأرض.

---

(٨) انظر: دروس في الفلسفة، يوسف كرم، إبراهيم مدور: (ص٣٢٤-٣٢٥)، قصة الفلسفة الحديثة، زكي نجيب محمود وأحمد أمين: (٩٣/١-٩٧)، آلام العقل الغربي، ريتشارد تارناس، (ص٣٣١-٣٣٣)، تاريخ الفلسفة الحديثة، وليم كلي رايت: (ص٩٣-٩٤).

(٩) انظر: تاريخ الفلسفة الغربية، برتراند رسل: (ص٩٥).

(١٠) انظر: التأملات في الفلسفة الأولى، ديكارت: (ص٩٥).

(١١) انظر: المصدر نفسه: (ص٦٦).

ب- أنه لا يستطيع أن يتيقن من وجوده ومشيه وجلوسه وما يفعله من أفعال، فإنه يرى في منامه أشياء كثيرة يظنها حال نومه حقيقة واقعة لا شك فيها، فإذا استيقظ علم أنه كان في أحلام وأوهام؛ فما الذي يضمن أنه لا يعيش في حلم كبير ووهم عظيم لم يفق منه بعد؟!(١٢).

٤- وهكذا طغت في نفس ديكارت الشكوك حتى شك في كل شيء، ولكنه رسخ في ذهنه منذ القدم أن هناك إلهًا قادرًا لا يمكن أن يضلله في وجود الأشياء وأنه مصدر اليقين والحقيقة، ولكن نزعة الشك كانت عارمة في نفسه فشك في وجود الإله، وشك في كل شيء حوله، وافترض أن شيطانًا خبيثًا ماكرًا استعمل كل قدراته في تضليله وتمويه الحقائق عليه، وأنه يعيش في وهم وحلم خطير!(١٣).

٥- غرق ديكارت في وحل من الشك القاهر الذي لم يجد الخلاص منه إلا من طريق واحد، هو أنه يستحيل أن يشك في حقيقة واحدة هي أنه يفكر، فإن هذا ما لا يمكنه الشك فيه بحال من الأحوال، وهذه الحقيقة الوحيدة هي التي تكون مبدأ فلسفة ديكارت ومفتاح منهجه الفكري؛ فهو يفكر إذن هو موجود، ولا يمكن أن يكون التفكير دون ذات تفكر وروح تتفاعل مع هذه العملية الذهنية الواضحة، وهذا هو الكوجيتو الديكارتي الذي صاغه في عبارته المشهورة: "أنا أفكر إذن أنا موجود".(١٤).

وأما موقف ديكارت من مصادر المعرفة، فإن ديكارت من أبرز الذين تبنوا الاتجاه العقلي الذي يجعل العقل هو مصدر المعرفة وأساس العلم اليقيني ويشك في مصدرية الحواس ولا يعتبرها مصدرًا من مصادر المعرفة؛ لكثرة ما تخطئ فيه، ويعلي من شأن المعرفة الفطرية العقلية التي هي أساس الاستدلال العقلي، وديكارت يقسم الأفكار في الجملة إلى ثلاثة أقسام(١٥):

١- أفكار غامضة:

وهي الأفكار التي يستمدها الإنسان من الأشياء الموجودة في الخارج عبر واسطة الحواس، مثل: الألوان، والأصوات، والحرارة، والبرودة، وهذا النوع من الأفكار لا قيمة له عند ديكارت؛ لأنه مستمد من الحواس، التي لا يرى لها قيمة في الاستدلال واليقين.

٢- أفكار مصطنعة:

وهي الأفكار التي صنعتها مخيلة الإنسان ولفقتها من الخيال، كصورة حصان له أجنحة وما شابه ذلك من صور ذهنية، وهذه أيضًا لا قيمة لها عند ديكارت؛ لأنها مجرد افتراضات ذهنية لا وجود لها في الخارج.

٣- أفكار فطرية:

وهي المبادئ البديهية التي تسبق التجربة ومستقرة في العقل، وهي من صنع الله القدير، وتمتاز بالوضوح والشمول وأنها لا تحتاج إلى برهنة واستدلال؛ لأنها هي أساس البراهين والأدلة.

وأما ما يتعلق بموقف ديكارت من طبيعة المعرفة والعلاقة بين الوجود الذهني والعالم الخارجي فإن ديكارت على طريقة المثاليين الذين يردون الأشياء إلى الذهن

---

(١٢) انظر: التأملات في الفلسفة الأولى: (ص٦٦-٦٧).

(١٣) انظر: المصدر نفسه: (ص٧١-٧٢)

(١٤) انظر: التأملات في الفلسفة الأولى: (ص٨٩-٩٧)، مقال عن المنهج: (ص١٤٩)، مبادئ الفلسفة: (ص٦٧).

(١٥) انظر: التأملات في الفسلفة الأولى: (ص١١٨)، مقال عن المنهج: (ص١٦٨).

وانطباعاته عنها، ويشكون في العالم الخارجي ويرون إثباته استدلاليًا معقدًا لا مباشرًا واضحًا، ولذلك يميز ديكارت بين الصفات الثانوية والصفات الأولية للأشياء، وتحكمه في نظرته للعالم فكرة "الامتداد"، فالأشياء التي نراها مكونة من صفات أولية هي الامتداد الذي يدركه الذهن وهو متعلق بالكم والحركة والمكان، أما الإدراك الحسي المتعلق بالألوان والطعوم واللمس فهو متعلق بصفات ثانوية ليس لها وجود حقيقي وجوهري في الأشياء؛ بل هي مجرد انطباعات ذهنية لا توجد إلا في الذهن، وضرب لذلك مثلًا في قطعة من شمع العسل، فطعم الشمع هو طعم العسل ورائحته هي رائحة الزهور ويمتاز بلون معين وحجم وشكل معين، ولكننا إذا وضعناه قرب النار نجد أن هذه الصفات قد تغيرت تمامًا، ولكن الشمع يبقى مع ذلك شمعًا، وأما تلك الصفات التي تبدلت فليست من الشمع ذاته، بل صفات ثانوية توجد في أذهاننا ولا حقيقة لها في الخارج(١٦).

فديكارت يرى أن الحواس غير قادرة على نقل حقائق الأشياء ولهذا فهو يشك فيها، وبجميع ما سبق يتأكد قول برتراند رسل عن فلسفة ديكارت بأن لبها ومحورها هو الشك.

وقد اختلف المفكرون والباحثون في الشك الذي تبناه ديكارت وجعله أساسًا لفلسفته، هل هو شك منهجي احترازي لا يتخذ الشك غاية ومطلبًا لذاته؟ أم هو شك عدمي كلي يجعل الشك غاية يسعى إليها ويقررها كمنهج شامل لكل ما يتناوله الإنسان، على اتجاهين:

الاتجاه الأول:

أن ديكارت تبنى الشك المنهجي الاحترازي(١٧).

الاتجاه الثاني:

أن ديكارت أقرب إلى الشك العدمي الكلي(١٨).

وهذا هو الأقرب؛ فإن ديكارت قد شك في كل شيء ابتداءً، شك في الحواس وفي مقدرتها على نقل الحقائق الخارجية بنفس شبه السوفسطائين الذين ينكرون إمكان الوصول إلى الحقائق، ثم شك في وجود الله وشك في وجود نفسه والعالم من حوله ثم أثبت نفسه إثباتًا غريبًا، حيث جعل مناط الإثبات لوجوده هو كونه يفكر فقط، وليس كونه يمشي أو يبصر أو يتحرك، وهذا لغلبة الشك عليه، فهو أثبت روحًا تفكر ولم يثبت جسده وبدنه من شدة شكه؛ لأنه يرى أن إثبات وجوده من كونه يمشي أو يبصر أو يتحرك لا يعتبر استنتاجًا يقينيًا ينتفي معه كل شك، لأن ذلك يحصل له وهو نائم**!**(١٩).

وبناء على ذلك فإن اعتباره يتبنى الشك المنهجي الاحترازي غير صحيح، كما أن اعتباره يتبنى الشك العدمي الكلي بإطلاق غير دقيق، والأقرب للصواب والدقة أن يقال بأن ديكارت تبنى مذهبًا ملفقًا مضطربًا، يثبت مصدرًا للمعرفة وهو العقل، ويشك في

(١٦) انظر: التأملات في الفلسفة الأولى: (ص٩٠-٩١)، ديكارت، للدكتور عثمان أمين: (ص٢١٧)، قصة الفلسفة الحديثة، لزكي نجيب محمود وأحمد أمين: (١/ ١٠٦).

(١٧) انظر: الفلسفة الحديثة، للدكتور كريم متى: (ص٦٩)، أسس الفلسفة، لتوفيق الطويل:(ص٣٢٦-٣٢٧)، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، مصطفى صبري: (١٨٨/٢).

(١٨) انظر: تاريخ الفسلفة الحديثة، يوسف كرم:(ص٦٨)، ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث، د.سلطان العميري: (٣٨٠/١).

(١٩) انظر: مبادئ الفلسفة: (ص٦٨).

مصدر آخر وهي الحواس، التي هي أساس معرفتنا وإدراكنا للواقع الخارجي، ولا يمكن أن تبنى الحقائق ولا أن تؤسس المعارف بشكل سليم من الإشكالات مع الشك في سلامة الحواس والطعن في كونها مصدرًا معتبرًا من مصادر المعرفة، وهذا الاضطراب المنهجي الذي وقع فيه ديكارت كان له أكبر الأثر في فلسفته وفي موقفه من مسألة وجود الله كما سيأتي.

المبحث الأول: براهين ديكارت على وجود الله

بعد أن أثبت ديكارت وجود نفسه وجودًا روحيًا لا بدنيًا ماديًا، اتجه إلى ما بعد ذلك، فوجد أن العالم الخارجي لا يمكن إثباته مع شكه الشديد في الحواس، وأراد الاستدلال على وجود الله، فلم يسلك الطريق المعروفة من الاستدلال بالعالم المحسوس المخلوق على خالقه القادر العظيم؛ لأنه لم يستطع إثبات هذا العالم، فسلك طريقة في الاستدلال تلغي وجود العالم الخارجي، وتنتقل مباشرة من النفس إلى الله، عبر ثلاثة براهين، هي[٢٠]:

١- أن كون الإنسان يشك فهذا دليل على نقصه، وأن وجوده ليس وجودًا كاملًا، وهناك فكرة مستقرة في الذهن أن هناك وجودًا كاملًا لا متناه، وهذه الفكرة محال أن تكون من صنع أنفسنا؛ لأن نفوسنا ناقصة وليست كاملة، وإذن فوجودها في أنفسنا دليل على مصدر كامل أوجدها؛ لأن الناقص لا يصدر عنه فكرة كاملة، كما أن الشيء لا يمكن أن يوجد عن لا شيء.

٢- أن الإنسان بعد أن أثبت وجوده يقينًا من خلال فكرة الشك، لا يصح أن يكون وجوده صادرًا عن نفسه؛ لأن الإنسان وقد غرس فيه فكرة وجود الكمال المطلق يستحيل أن يكون هو واهب الوجود لنفسه دون أن يهبها الكمال، ولكن الواقع أن نفوسنا ناقصة، فلا بد من وجود الموجود الكامل يكون هو علة وجودنا.

٣- وهو أعظم أدلة ديكارت وأقواها، وهو الذي عني به الباحثون والمفكرون، وهو الذي أطال ديكارت في شرحه وتقريره ورآه أقوى الأدلة، وخلاصته: أن الإنسان قد استقر في ذهنه فكرة الكمال المطلق المتعلق بالله، وهذه الفكرة ليست من جنس التصورات الذهنية التي قد لا تتحقق في الخارج، ولا يلزم من تصورها وقوعها بالفعل، بل هي فكرة ضرورية تستلزم وجود الله؛ لأن فكرتنا عن الله بأنه موجود كامل لا متناه تستلزم وجوده بالضرورة، والوجود صفة كمال ولا بد من تحقق مقتضاه من جهة أن معرفتنا بالله لا يمكن أن تكون مجرد تصور ذهني لا حقيقة له في الخارج، بل لا بد من إثبات وجود الله، وإلا لما كان لوجود هذه الفكرة المستقرة في الأذهان عن الوجود الكامل معنى، وكما أننا يمتنع أن نتصور مثلثًا مستقيم الأضلاع دون أن نتصور خواصه من كون زواياه الثلاث مساوية الزاويتين القائمتين؛ فكذلك يمتنع أن نتصور فكرة الوجود الكامل دون أن يكون من مقتضى ذلك إثبات وجوده بالفعل.

يقول ديكارت في بيان ذلك:(إذا عاد الفكر بعد ذلك واستعرض الأفكار المختلفة القائمة فيه فاكتشف منها فكرة موجود محيط العلم والقدرة، كامل غاية الكمال تيسر له أن يحكم بما يراه في هذه الفكرة من أن الله وهو ذلك الموجود الكامل على الإطلاق كائن أو موجود؛ لأنه وإن يكن لديه أفكار متميزة عن أشياء أخرى كثيرة، لكنه لا يلحظ فيها شيئًا يؤكد له وجود موضوعاتها، في حين أنه يدرك في هذه الفكرة أنها لا تتضمن الوجود الممكن فحسب، كما هو الشأن في أفكاره عن الأشياء الأخرى، بل الوجود

---

(٢٠) انظر: مبادئ الفلسفة: ص٧٢-٧٨)، التأملات في الفلسفة الأولى: (ص١١٣-١٣٨، موسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي:(٤٩٥/١-٤٩٦)، الله في الفلسفة الحديثة، لجيمس كولينز:(ص٩٤)، الفسلفة الحديثة، كريم متى: (ص٧٤-٧٧).

الضروري الأبدي على الإطلاق، ومن حيث إن الفكر يرى أن من الضروري أن يكون متضمنا في الفكرة التي لديه عن المثلث أن زواياه الثلاث مساوية لقائمتين، فهو راسخ الاقتناع بأن للمثلث الزوايا الثلاث المساوية للقائمتين، كذلك متى تصور الوجود الضروري الأبدي متضمنا في فكرته عن الوجود الكامل إطلاقًا؛ زم أن يستنتج أن هذا الوجود الكامل بإطلاق موجود حقًا، ويستطيع الفكر أن يزداد وثوقًا من صحة هذه النتيجة إذا انتبه أنه لا يجد في ذاته فكرة شيء آخر يتبين فيها وجودًا ضرورته على هذا النحو من الإطلاق، وهو يتحقق من ذلك أن فكرة موجود كامل وهما من نسيج الخيال، بل أودعتها فيه طبيعة ثابتة حقيقية موجودة بالضرورة، لأنها لا تتصور إلا مصاحبة لوجودها الضروري)(٢١).

وقد اختلف في كون ديكارت قد ابتدع هذا الدليل من تلقاء نفسه أو أنه نقله عن أحد قبله، على عدة أقوال، هي:

١- أن ديكارت نقل هذا الدليل من القديس أنسلم وتابعه عليه، ولم يبتدعه من تلقاء نفسه(٢٢).

٢- أن ديكارت أجرى تعديلًا طفيفًا على دليل أنسلم(٢٣).

٣- أنه مخالف لدليل أنسلم، ويمتاز عنه بأنه أقوى وأضبط وأحكم(٢٤).

٤- أن ديكارت متابع في دليله للفيلسوف ابن سينا(٢٥).

وأولى هذه الأقوال بالصواب القول الثالث؛ فإن القديس أنسلم بنى استدلاله على وجود الله على محض التصور ولم يفرق بين التصورات الممكنة التي يستوي فيها إمكان التحقق من عدمه، وبين التصور الضروري الذي يمتنع مع تصوره عدم تحققه، وهذا ما ألح عليه ديكارت كثيرًا، وبين أنه لا يبني استدلاله على محض تصور الكمال، بل على أن فكرة الكمال المطلق فكرة ضرورية لا تستطيع النفس دفعها ولا المكابرة فيها، وليست مجرد فكرة يفرضها الذهن ويتصورها مثل ما يتصور سائر التصورات الممكنة؛ ديكارت يرى أن فكرته ضرورية وأما أنسلم فيراها فكرة استدلالية، وبهذا لم يسلم من الاعتراض على دليله بأنه مبني على المصادرة(٢٦)، وبهذا يتبين عدم صحة القول الأول بأن ديكارت تابع أنسلم على دليله، كما يتبين عدم صحة القول الثاني بأن ديكارت أجرى تعديلًا طفيفًا على حجة أنسلم، فإن الفرق بين القولين كبير.

وأما القول بأن ديكارت تابع ابن سينا في دليله، فهذا غير دقيق؛ فإن ابن سينا يبني استدلاله على وجود الله على أساس أن الوجود المطلق ينقسم إلى قسمين: إما وجود واجب، أو وجود ممكن، وأن تصور الوجود الممكن يستلزم تصور الوجود الواجب(٢٧)، أما ديكارت فلم ينطلق من فكرة الوجود المجرد، بل انطلق استدلاله من

---

(٢١) مبادئ الفلسفة: (ص٧٢-٧٣، التأملات في الفلسفة الأولى: (ص١٢٦-١٣٠)

(٢٢) انظر: موسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي: (ص٤٩٦-٤٩٧)، تاريخ الفلسفة الغربية، برتراند رسل: (٣/ ١٠٥)، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين، مصطفى صبري: (١٩٦/٢)، الأدلة العقلية على وجود الله بين المتكلمين والفلاسفة، سعيد فودة: (ص٩٦-١١).

(٢٣) انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة، وليم كلي رايت: (ص١٠٠).

(٢٤) انظر: الله، للعقاد: (ص١٨٧)، المعرفة في الإسلام، د.عبد الله القرني:(ص٢١٤- ص٥١٨).

(٢٥) انظر: قصة الإيمان، لنديم الجسر: (ص١٢٨.).

(٢٦) انظر: المعرفة في الإسلام، د. عبد الله القرني: (ص٥١٨.).

(٢٧) انظر: الإشارات والتنبيهات، لابن سينا: (٥٤/٣).

فكرة الكمال المطلق، وأنه فكرة مستقرة في فكر المخلوق الناقص، وأنه يمتنع أن يكون ذلك مجرد فكرة لا تحقق لها في الخارج.

وقد لقي ديكارت عدة اعتراضات على هذا الدليل الذي جاء به، ومن أبرزها اعتراض الفيلسوف الألماني أيميول كانت وتابعه عليه غيره، من أن استدلال ديكارت مبني على مصادرة ومغالطة، فإن مجرد تصور الكمال لا يكفي لتحققه في الخارج، وأن هذه هي مصادرة أنسلم بعينها(٢٨).

وقد سبق بيان الفرق بين القولين، ومما يزيد الأمر إيضاحًا ما ذكره الشيخ محمد دراز من الرد على اعتراض كانت بقوله:(وظن الفيلسوف الألماني «كانت» أنه استطاع هدم هذه الحجة، بقوله إنه وإن تكن خصائص الماهيات العقلية يمكن استنباطها كلها من طبيعة تلك الماهيات كما تستنبط خصائص الأشكال الهندسية من مفهوماتها إلا أن صفة الوجود على الخصوص لا يمكن أخذها من تلك المفاهيم العقلية، فحقيقة المثلث وإن ثبتت لها الخواصُّ الهندسية المعروفة، بالضرورة العقلية، إلا أنه لا يلزم من ذلك وجودُ مثلث في الخارج، وكل ما في الأمر أنه إن وُجِدَ مثلثٌ كان على هذه الأوضاع، وكانت له هذه الخواصُّ، وهكذا سائر المفاهيم العقلية، ليس وجودها في الذهن دليلًا كافيًا على وجودِها في الخارج، بل إنَّ منها ما هو مخترعٌ اختراعًا بحتًا، كما نتصور قصرًا من ماء، وإنسانًا من هواء.

ولكن فات هؤلاء الناقدين ما هناك من بَوْن شاسع بين تلك الماهيات الممكنة التي يعترضون بها، والتي لا يلزم من فرض عدمها محال، بين الماهية العقلية الواجبة، التي بلغ من رسوخها في كيان العقل أن إبطالها يعدُّ إبطالًا لكل معقول ومعلوم؛ إذ لا بد في العقل من التسليم بوجودها في الخارج لتستمد منه كل الممكنات وجودها في الأعيان والأذهان.)(٢٩).

كما اعترض الفيلسوف "جاسندي" على ديكارت، بان هذا الكائن اللا نهائي الذي أثبته لا يمكن معرفة شيء عنه، وأفكارنا عنه ستظل ناقصة ومحدودة، وبناء على ذلك فإن برهان ديكارت على وجوده يكون ساقطًا، (فأجاب ديكارت بأنه كما أن الرجل الساذج الذي لا دراية له بعلم الهندسة يكون له إلمام بفكرة المثلث بصفة عامة، وإن لم يعرف من قوانينه شيئًا، فكذلك نحن نفهم اللا متناهي بوجه عام، وإن كنا لا نعرفه معرفة تفصيلية شاملة)(٣٠).

ومن المهم التنبيه على أن ديكارت بعد أن يستدل على وجود الله بهذه الطريقة يجعل وجود الله أساسًا لإثبات الحقائق، ولإثبات العالم الخارجي، فهو انطلق من نفسه مباشرة إلى إثبات وجود الله، ثم بعد إثبات وجود الله يبدأ في إثبات العالم الخارجي المحسوس، وهذا عنده مبني على أن الله متصف بالصدق الكامل، ويستحيل أن يكون سببًا في تضليل الإنسان أو خداعه، وبهذا يسهل على الإنسان أن يقيم الأدلة على وجود العالم الخارجي، فقد كان مثارًا للشك حين كان الشك في الحواس وفي وجود الإنسان قويًا، أما بعد إثبات وجود الله ويقيننا بأنه متصف بالصدق الكامل؛ فإنه يمتنع حينئذ الشك في وجود العالم

---

(٢٨) انظر: نقد العقل المحض، لكانت: (ص٣٦٧-٣٧٢)، معارضة أوبّي عن: الأدلة العقلية على وجود الله، لسعيد فودة: (ص١٠٣)، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين، لمصطفى صبري: (١٩٨/٢).

(٢٩) الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، محمد عبد الله دراز: (ص١٥١-١٥٢)، وانظر: الفلسفة الحديثة، كريم متى: (ص٧٨-٧٩).

(٣٠) قصة الفلسفة الحديثة، زكي نجيب محمود وأحمد أمين: (١/ ١٠٣).

الخارجي؛لأن الله هو الذي أمدنا بالعقل الذي يدرك هذا العالم، ويمتنع أن يكون مخادعًا أو مضللًا(٣١).

إذن فقد (بدأ ديكارت بتكذيب عقله في كل ما يجيء به، وانتهي بتصديق عقله في كل ما يصل إليه) (٣٢)، وقد تعرض تقريره هذا لاعتراضين:

١- أن هذا يلزم منه الدور؛ فإنه يجعل المبادئ العقلية الأولية ضمانًا لوجود الله، ويجعل هذه الأفكار في نفس الوقت نتيجة من نتائج الاستدلال على وجود الله(٣٣)، ولكن ديكارت أجاب عن هذا بأن هناك فرقًا بين العلم الاستنباطي الذي يتطلب الاستدلال وترتيب الحجج، وهذا الذي يحتاج لضمان من الله، وبين العلم الضروري الذي هو أساس العلم والاستدلال، ولا يمكن استنتاجه من أي قياس، ولذلك فليس هو بحاجة إلى الضمان الإلهي، لأنه بدهي ضروري(٣٤).

٢- أنه إذا كان الله هو ضمان الصدق، ومصدر اليقين، فكيف نخطئ ونتعرض للوهم والانحراف عن الحق كما هو مشاهد ومعلوم؟(٣٥)، وقد أجاب ديكارت بأن الأخطاء التي تعرض لنا ليست من جهة خطئنا في الإدراك والتصور، بل من جهة اتباعنا للهوى والميل عن الحق للرغبة والرهبة أو لغير لذلك من الأمور المتعلقة بالإرادة البشرية، وهو بهذا يصر على ضرورة التفريق الكامل بين نمطين عامين: (أحدهما: الإدراك بالذهن، والآخر: التصرف بالإرادة)(٣٦).

المبحث الثاني: الموقف من براهين ديكارت

إن الأدلة الفلسفية التي جاء بها ديكارت على وجود الله -تعالى- خصوصًا الدليل الثالث الذي هو أهمها وأقواها لا إشكال فيها في الجملة، وهي موصلة إلى المقصود من البرهنة على وجود الله، والتحقيق: أن دليل ديكارت المشهور هو مما جاء به من تلقاء نفسه، وليس هو دليل القديس أنسلم، كما ذكر بعض الفلاسفة وبعض الباحثين، كما أن دليل ديكارت مبني على قضية بدهية ضرورية هي أن الله متصف بالكمال المطلق، ويمتنع تصور الكمال المطلق دون أن يكون متضمنًا للوجود الذي هو صفة كمال، والذين نقدوا الدليل الديكارتي بناء على أنه يضمن مغالطة عدم التفريق بين التصور الذهني الممكن والتصور الضروري الذي لا يكون إلا عن حقيقة خارجية لم يفهموا في الحقيقة حجة ديكارت ولا وجه برهنته.

ولكن دليل ديكارت مع صحته دليل صعب ومعقد، وهو من الطرق البعيدة وإن كانت موصلة، وليس الإشكال الذي ينتقد على ديكارت في مجرد كون هذا الدليل صعبًا أو معقدًا، إنما الإشكال الذي ينتقد ديكارت من أجله أنه وقع في إشكالين منهجيين:

الإشكال لأول: حصر دلائل وجود الله في هذا الدليل.

الإشكال الثاني: أن منهج ديكارت الفلسفي تضمن عدة مزالق خطيرة هي التي دفعته لحصر دلائل وجود الله في دليل واحد.

---

(٣١) انظر: مبادئ الفلسفة: (ص٨٥-٨٦)، التأملات في الفلسفة الأولى: (ص١٤٨).
(٣٢) قصة الفلسفة الحديثة: (١/١٠٤).
(٣٣) انظر: دروس في الفلسفة، يوسف كرم وإبراهيم مدكور: (ص٣١١)
(٣٤) انظر: ديكارت، لعثمان أمين: (ص٢١٢-٢١٣).
(٣٥) انظر: دروس في الفلسفة، يوسف كرم وإبراهيم مدكور: (ص٣١٠).
(٣٦) مبادئ الفلسفة: (ص٨٨)، وانظر: التأملات في الفلسفة الأولى: (ص١٥٥).

فأما ما يتعلق بالإشكال الأول: فإن ديكارت قد حصر دلائل وجود الله الكثيرة والمتنوعة في دليل واحد وطريقة معينة، ومقتضى هذه الطريقة رفض الدلائل الأخرى كما سيأتي في بيان الإشكال المنهجي الثاني عنده، وهذا إشكال كبير؛ فإن دلائل وجود الله كثيرة جدًا، ومسألة وجوده ليست من المسائل الغامضة والمعقدة حتى يسلك في إثباتها دليلًا لا يخلو من الصعوبة والتعقيد، فضلًا عن أن تحصر الدلائل كلها فيه كما فعل ديكارت.

والأدلة على وجود الله كثيرة، ولكنها ترجع في الجملة إلى دليلين:

الدليل الأول: دلالة إيجاد المخلوقات بعد عدمها:

فإن كل إنسان يدرك من نفسه وجوده بعد أن لم يكن موجودًا، كما يدرك أن وجوده ليس وجودًا كاملًا أبديًا، بل هو وجود ناقص يسبقه العدم ويعتريه النقص والزوال، وها هنا ثلاثة احتمالات لا رابع لها:

١- أن يكون خلق نفسه بنفسه وهذا ظاهر الامتناع.

٢- أن يكون خلق من غير شيء، وهذا مناقض لضرورة العقل، ولمبدأ السببية العام الذي يقتضي أن كل حادث لا بد له من سبب.

٣- أن يكون هناك خالقًا خلقه وأوجده من العدم، وهذا هو الاحتمال الصحيح، وهو معنى قوله تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٣٥﴾ [سورة الطور:٣٥]، يقول الإمام ابن تيمية:(هذا تقسيم حاصر يقول أخلقوا من غير خالق خلقهم فهذا ممتنع في بداية العقول، أم هم خلقوا أنفسهم فهذا أشد امتناعا فعلم أن لهم خالقا خلقهم وهو سبحانه وتعالى ذكر الدليل بصيغة استفهام الإنكار؛ ليبين أن هذه القضية التي استدل بها فطرية بديهية مستقرة في النفوس، لا يمكن أحدا إنكارها فلا يمكن صحيح الفطرة أن يدعى وجود حادث بدون محدث أحدثه، ولا يمكنه أن يقول هو أحدث نفسه)(٣٧).

ومعرفة حدوث المخلوقات قضية بدهية تستند إلى ضرورة صدق الحس في نقل الحقائق الخارجية، وفي إدراك العالم المحسوس؛ ولذلك يذكرها الله -تعالى- في الاستدلال على هذه القضية ليبني عليها ما بعدها من الاستدلال على وجوده، وامتناع صدور العالم من غير خالق، وليس ليثبتها في ذاتها؛ فإن القضايا الضرورية البدهية يستدل بها ولا يستدل لها، وكما يقول ابن تيمية:(نفس حدوث الحيوان والنبات والمعدن والمطر والسحاب ونحو ذلك معلوم بالضرورة، بل مشهود لا يحتاج إلى دليل، وإنما يعلم بالدليل ما لم يعلم بالحس وبالضرورة، والعلم بحدوث هذه المحدثات علم ضروري لا يحتاج إلى دليل، وذلك معلوم بالحس أو بالضرورة: إما بإخبار يفيد العلم الضروري، أو غير ذلك من العلوم الضرورية.)(٣٨).

الدليل الثاني: دليل الإحكام وفي المخلوقات:

وهذا الدليل لا يمكن حصر شواهده، ولا إحصاء أمثلته؛ لأن دلائل إتقان الله في مفعولاته وكماله في صنعه وبديع خلقه لا يحصرها عاد، ولهذا الدليل عدة صور كبرى، لعل أبرزها صورتان:

١- دليل العناية:

وهو ما يحس ويشاهد في هذا الكون من مظاهر عناية الله بالمخلوقات عامة وبالإنسان خاصة؛ حيث سخر له ما في الأرض، وجعل المخلوقات مهيأة له ومتوافقة

(٣٧) الرد على المنطقيين، ابن تيمية:(ص٢٥٣).

(٣٨) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: (٢١٩/٧).

مواتية لعيشه على أتم حال تناسبه، ووجه هذه الدلالة على وجود الله أنه يمتنع عقلًا أن تكون كل مظاهر العناية المحكمة من دون فاعل قاصد مريد ومدبر حكيم(٣٩).

٢- دلالة الإتقان والإبداع:

وهو ما يحس ويشاهد في هذا العالم من دقة متناهية في صنع الله، فيما يتعلق بنظام الكون من تتابع الليل والنهار، ودقة سير الكواكب، وانتظام المجرات، وبناء السماوات بغير عمد، وخلق الله للإنسان في أحسن تقويم، وما خلق الله الدواب والطير والحيوانات عليه من الهداية لأسباب العيش والرزق، إلى غير ذلك من الدلالات التي لا يحصيها بشر، مما يؤكد قول الله -تعالى-: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ [سورة النمل:٨٨]، وقوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾ [سورة الملك:٣].

أما ما يتعلق بالإشكال الثاني، وهو أن منهج ديكارت قد تضمن عدة مزالق منهجية خطيرة هي التي دفعته لحصر دلائل وجود الله في دليل واحد؛ فإن ديكارت قد وقع في خطأ عظيم حين شك في مصدرية الحواس، واعتبرها خداعة لا يوثق بها، فإن هذا مكابرة ومغالطة، وأساس الإشكال عند ديكارت في هذا المقام هو أنه بنى إعراضه عن الثقة في الحواس على حالات شاذة لا يقاس عليها، وجميع ما ذكره ديكارت لا يخرج عن أن يكون سببه إما عدم سلامة الحواس، أو أن الواقع الخارجي للأشياء المدركة ليس ثابتًا ولا واضحًا، وما ذكره من أمثلة في تسويغ شكه لا تخرج عن ذلك، فأما ما يتعلق بكون العين تخدعه في الأشياء البعيدة جدًا فتريه إياها أصغر مما هي عليه؛ فإن هذا ليس مرده من خطأ الحس، وإنما لبعد تلك الأشياء بعدًا كبيرًا يجعلها في نظر العين أصغر مما هي عليه، وكذلك ما ذكره من إمكان اشتباه حال اليقظة بحال المنام، وما يراه النائم في منامه من أشياء يتبين له عند استيقاظه أنها لم تكن، فإن هذا مبني على عدم اعتقاد عدم القدرة بين التمييز بين حال المنام واليقظة، مع أن الفرق بينهما ضروري بدهي؛ فإن الأحلام تشتمل على أمور لا يمكن أن تحدث في اليقظة، كما أنها لا تكون واضحة بنفس مقادر وضوح الأشياء حال اليقظة، ومما يؤكد ذلك أن ديكارت ذكر الحالين حال المنام وحال اليقظة؛ فلو لم يكن يحس أن بينهما فرقًا لما خص كل واحد منهما بالذكر(٤٠).

وهذا الخطأ المنهجي من ديكارت هو الذي دفعه إلى الإعراض عن الطريقة المعروفة في الاستدلال على وجود الله، وهي الاستدلال بالمخلوقات على الخالق، وبالمصنوعات على الصانع القدير، سواء ما يتعلق بوجودها بعد عدمها، أو ما يتعلق بما هي عليه من الإحكام والإتقان والعناية والتسخير، وهي الطريقة التي يسلكها عامة المؤمنين بوجود الله.

أما ديكارت فانطلق من ذاته إلى إثبات الله مباشرة دون اعتراف منه بالعالم الخارجي، بل ودون اعتراف منه إلا بذاته المفكرة، التي لم يستطع وفق منهجه الشكي إثبات شيء يجاوزها من البدن المحسوس؛ لشدة إيغاله في الشك، فلم يكن له بعد ذلك إلا طريق واحد للبرهنة على وجود الله، وهو الذي سلكه.

ولم تقف إشكالات ديكارت المنهجية عند هذا الحد، فإنه قد بقي في شكه في وجود العالم الخارجي حتى بعد إثباته لوجود الله، وحتى مع تقريره بأنه مصدر الحقائق

---

(٣٩) انظر: مناهج الأدلة، ابن رشد: (ص٥٩-٦٠)، الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد، د. سعود العريفي: (ص٢٢٧).

(٤٠) انظر: مدخل إلى نظرية المعرفة، لأحمد الكرساوي: (ص٦٢-٦٥)، المعرفة في الإسلام، د. عبد الله القرني: (ص٣٣٨-٣٣٩).

وضمان الصدق الذي يمتنع معه أن يخدعنا أو يضللنا فيما وهبنا من عقول تدرك، فأثبت وجود العالم الخارجي بطريقة استدلالية معقدة لا بدهية مباشرة، وقسم الأشياء المادية إلى: صفات ثانوية، وصفات جوهرية، وجعل إدراك الصفات الجوهرية متعلقًا بالامتداد الذي يدركه الذهن من الكم والحركة والمكان، وإدراك الصفات الثانوية هو انطباعات الذهن المنعكسة من الإدراك الحسي المتعلق باللون والطعم واللمس، ولا حقيقة لها في الخارج، إذ هي من خدع الحواس!

وكان الأولى بديكارت أن يسلم بمصدرية الحواس ليسلم من كل تلك الإشكالات؛ لأنها مقتضى الضرورة أولًا، ولأنها ثانيًا متماشية مع تقريره بأن الله متصف بالصدق المطلق الكامل فلا يمكن أن يخدعنا أو يضللنا فيما وهبنا من عقول، فكذلك ينبغي له أن يطرد قوله فيقرر بأنه لا يمكن أن يخدعنا أو يضللنا فيما وهبنا من حواس، ولكن ديكارت وقع في التناقض والاضطراب، وبالغ في اعتبار مصدرية العقل حتى جعل الخطأ لا يمكن أن يعرض له إلا من جهة الإرادة لا من جهة فساد الإدراك والتصور، كما بالغ في عدم اعتبار مصدرية الحواس حتى ألغى اعتبار كل ما تأتي به.

الخاتمة

في نهاية هذا البحث نلخص أهم النتائج التي توصل إليها البحث، وما خرج به من توصيات، على النحو الآتي:

أولًا: النتائج

توصل البحث إلى نتائج كثيرة مبثوثة في صفحاته، يمكن إيجاز أهمها في الآتي:

١- أن فلسفة ديكارت تقوم على الشك، وإلغاء مصدرية الحواس في باب المعرفة، وقد تبنى قولًا ملفقًا بين: الشك العدمي الكلي، وبين الشك المنهجي الاحترازي.

٢- أن مفتاح فلسفة ديكارت هو إثبات وجوده عبر قاعدة "أنا أفكر إذن أنا موجود"، فمنها انطلق في إثبات وجوده بعد أن شك في كل شيء.

٣- أن ديكارت لم يسلك في الاستدلال على وجود الله المسلك المعروف من الانطلاق من الاستدلال بالمخلوقات على الخالق، وذلك لشكه في الحواس، وإنما انطلق من ذاته مباشرة إلى إثبات وجود الله.

٤- أن الصحيح في دليل ديكارت على وجود الله هو أنه لم يتابع عليه أحدًا ممن قبله، وما ذكره بعض الفلاسفة والباحثين من متابعته للقديس أنسلم غير دقيق، فإن ديكارت يصر على ضرورة التفريق بين التصورات الممكنة والتصورات الضرورية وهذا ما لم يكن من أنسلم.

٥- أن دليل ديكارت على وجود الله دليل صحيح في الجملة ولا إشكال فيه.

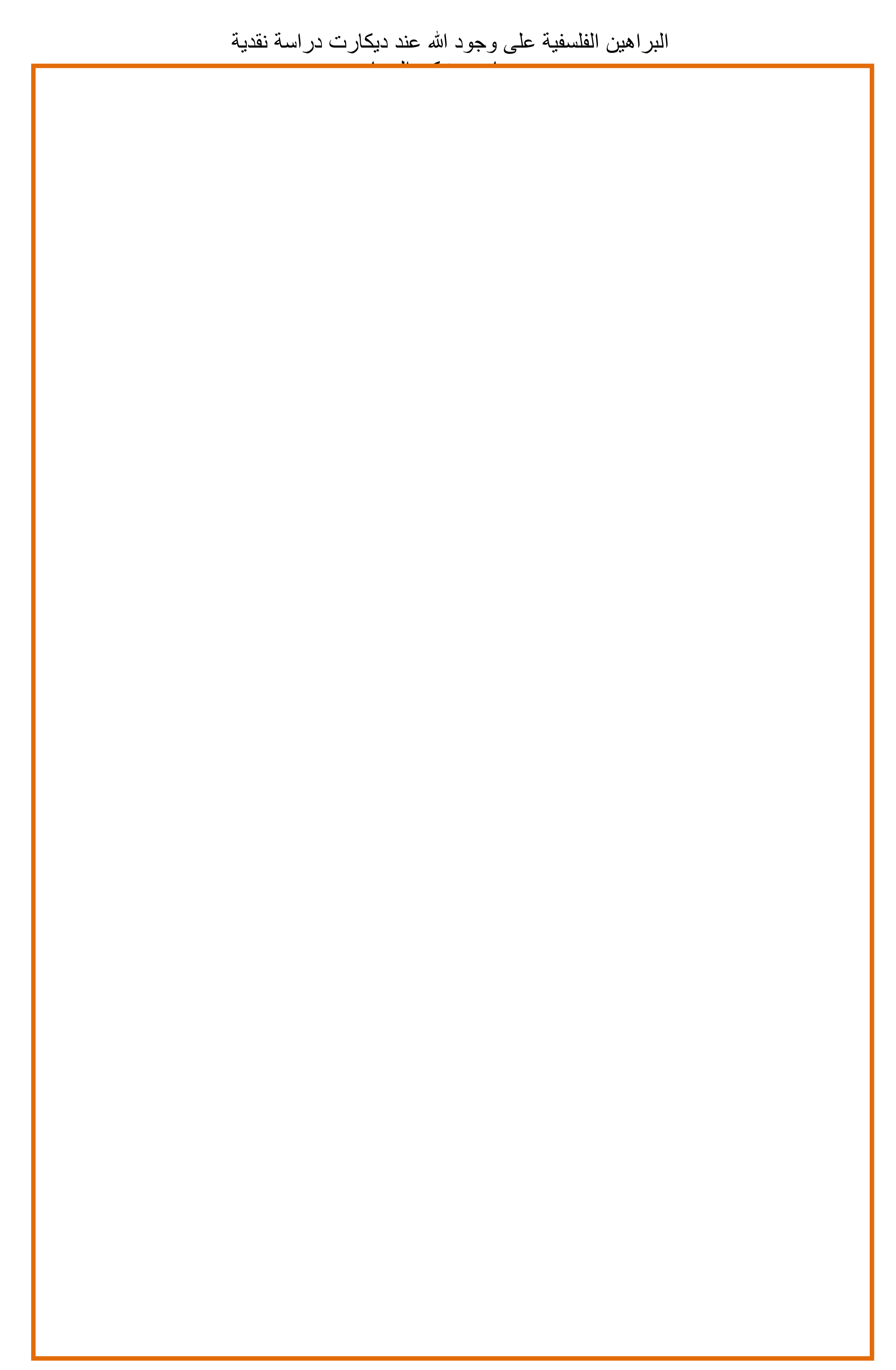
٦- أن الإشكال الذي وقع فيه ديكارت أنه حصر دلائل وجود الله الكثيرة والمتنوعة في دليل واحد فقط، ولم يعتبر سواه من الأدلة، وهذا لإيغاله في الشك، ولعدم اعترافه بقينية الحواس واعتبارها مصدرًا لإدراك العالم الخارجي.

ثانيًا: التوصيات

دراسة مواقف بعض الفلاسفة المحدثين من مسألة الوجود الإلهي وبيان ما لها وما عليها، مثل موقف أنسلم، وكانت، وغيرهما.

المصادر والمراجع

وهي بعد كتاب الله – تعالى - الخاتم (القرآن الكريم):
١. الأدلة العقلية على وجود الله بين المتكلمين والفللسفة، د. سعيد فودة، دار الأصلين، ط٢، ٢٠١٦م.
٢. الأدلة العقيلة النقلية على أصول الأعتقاد, للدكتور سعود العريفي، مركز تكوين ط١/ ١٤٣٥ه.
٣. أسس الفلسفة للدكتور توفيق الطويل، دار النهضة العربية، القاهرة، ط٤، ١٩٦٤م.
٤. الإشارات والتنبيهات، ابن سينا، شرح الطوسي، دار المعارف، مصر، ط٣.
٥. آلام العقل الغربي، ريتشارد تارناس، مكتبة العبيكان، ط١ ، ٢٠١٠م.
٦. تاريخ الفلسفة الغربية، برتراند رسل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١م.
٧. تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديمة إلى القرن العشرين، غنار سكيربك، نلز غيلجي، مركز دراسات الوحدة العربية،ط١، ٢٠١٢م.
٨. تاريخ الفلسفة الحديثة، وليم كلي رايت، دار التنوير، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.
٩. تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، دار المعارف، مصر، ط٦، ٢٠٢١م.
١٠. التأملات في الفلسفة الأولى، رينيه ديكارت، ترجمة عثمان أمين، دارآفاق، القاهرة، ط١، ٢٠٢٠م.
١١. درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيميّة ، تحقيق: محمد رشاد سالم، ط دار الفضيلة، الرياض، ط الاولى ١٤٢٩ه.
١٢. دروس في الفلسفة، ليوسف كرم وإبراهيم مندور، دار عالم الأدب، بيروت، ط ١، ٢٠١٦م.
١٣. ديكارت، عثمان أمين، مكتبة النهضة المصرية، ط٣، ١٩٥٣م.
١٤. الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، محمد درازز تفكر للبحوث والدراسات، ط١، ٢٠١٩م.
١٥. الرد على المنطقيين، ابن تيميّة ، تحقيق: عبد الصمد الكتبي، شركة الريان، ط٣، ٢٠١٧م.
١٦. ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث، د. سلطان العميري، مركز تكوين، الخبر، ط ١، ٢٠١٧م.
١٧. الفسلفة الحديثة عرض نقدي، كريم متى، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط ٢، ٢٠٠١.
١٨. الفسلفة في مسارها، د. جويج زيناتي، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط٢، ٢٠١٣م.
١٩. قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، نديم الجسر، طرابلس، لبنان.
٢٠. قصة الفلسفة الحديثة، لأحمد أمين وزكي نجيب محمود، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٣٦م.
٢١. الكشف عن مناهج الأدلة، ابن رشد، دار العلم للجميع، ط٢، ١٩٣٥م.
٢٢. الله جل جلاله، عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠١٤م.
٢٣. الله في الفلسفة الحديثة، جيمس كولينز، دار آفاق، القاهرة، ط ١، ٢٠١٩م.
٢٤. مبادئ الفلسفة، رينيه ديكارت، ترجمة عثمان أمين، الدار الأهلية، الأردن، ط٢، ٢٠٢٣م.
٢٥. مدخل إلى نظرية المعرفة، لأحمد الكرساوي، مركز تكوين للدراسات والبحوث، ط١، ٢٠١٩م.
٢٦. المعرفة في الإسلام، مصادرها ومجالاتها، للدكتور عبد الله القرني، مركز التأصيل، جدة، ط٢، ٢٠٠٩م.
٢٧. مقال عن المنهج، ديكارت، المكتبة السلفية، ط١، ١٩٣٠م.
٢٨. موسوعة الفلسفة، للدكتور عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٤.
٢٩. موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين، مصطفى صبري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠١٢م.
٣٠. نقد العقل المحض، عمانوئيل كانط، ترجمة: موسى وهبه، دار التنوير، ٢٠١٥.



Romanization of Resources

The Holy Qur'an.

1. Al-Adillah Al-'Aqliyah 'ala Wujoud Allah bayna Al-Mutakallimeen Wal-Falaasifah, Dr. Sa'eed Foudah, Al-Asliyeen House, 2nd ed., 2016.
2. Al-Adillah Al-'Aqliyah Al-Naqliyah 'ala 'Osoul Al-I'teqaad, Dr. Sa'ud Al-'Areefy, Takween Center, 1st ed., 1435h.
3. 'Osus Al-Falsafah, Dr. Tawfeeq Al-Taweel, Al-Nahdhah Al-'Arabiyah House, Cairo, 4th ed., 1964.
4. Al-Ishaaraat Wal-Tanbeehaat, Ibn Sina, Explained by: Al-Tousy, Al-Ma'aaref House, Egypt, 3rd ed.
5. 'Aalaam Al-'Aql Al-Gharbi, Richard Taranas, Al-'Obeikan Library, 1st ed., 2010.
6. Tareekh Al-Falsafah Al-Gharbiyah, Bertrand Russell, General Egyptian Board of Book, 2011.
7. Tareekh Al-Fikr Al-Gharbi min Al-Younaniyah Al-Qadeemah 'ila Al-Qarn Al-'Ishreen, Gnar Skirbik, Nills Ghilji, Arabian Union Studies Center, 1st ed., 2012.
8. Tareekh Al-Falsafah Al-Hadeethah, William Kelly Wright, Al-Tanweer House, Beirut, 1st ed., 2010.
9. Tareekh Al-Falsafah Al-Hadeethah, Yusuf Karam, Al-Ma'aaref House, Egypt, 6th ed., 2021.
10. Al-Ta'ammulaat fi Al-Falsafah Al-'Oula, René Descartes, Translation: 'Othman Ameen, 'Aafaaq House, Cairo, 1st ed., 2020.
11. Dar'u Ta'aarudh Al-'Aqli Wal-Naqli, Sheikh-Al-Islam Ibn Taymiyyah, Verifier: Mohammed Rashaad Salim, Al-Fadheelah House, Riyadh, 1st ed., 1429h.
12. Durous fi Al-Falsafah, Yusuf Karam and Ibrahim Mandour, 'Aalam Al-Adab House, Beirut, 1st ed., 2016.
13. Dekaart, 'Othman Ameen, Al-Nahdhah Al-Masriyah Library, 3rd ed., 1953.
14. Al-Deen Buhouth Mumahiddah Li-Deraasat Al-Adyaan, Mohammed Darraz, Tafakkur Center for Research and Studies, 1st ed., 2019.
15. Al-Raddu 'ala Al-Mantiqiyeen, Ibn Taymiyyah, Verifier: 'Abdul-Samad Al-Katby, Al-Rayyan Co., 3rd ed., 2017.
16. Zhaaherat Naqd Al-Deen fi Al-Fikr Al-Gharbi Al-Hadeeth, Dr. Sultan Al-'Omairy, Takween Center, Khubar, 1st ed., 2019.
17. Al-Falsafah Al-Hadeethah 'Ardhun Naqdi, Kareem Matta, New Book United House, 2nd ed., 2001.
18. Al-Falsafah fi Masaareha, Dr. Jweij Zinaty, New Book United House, Beirut, 2nd ed., 2013.
19. Qissat Al-Imaan bayna Al- Falsafah Wal-'Elm Wal-Qur'an, Nadeem Al-Jisr, Tripoli, Lebanon.
20. Qissat Al-Falsafah Al-Hadeethah, Ahmed Ameen and Zaki Najeeb Mahfouzh, Publisher: Committee of Authorship and Translation, Cairo, 1936.

21. Al-Kashfu 'an Manaahij Al-Adillah, Ibn Rushd, Science for All House, 2nd ed., 1935.
22. Allah Jalla Jalaaluh, 'Abbas Mahmoud Al-'Aqqaad, Contemporary Library, Beirut, 2014.
23. Allah fi Al-Falsafah Al-Hadeethah, James Collins, 'Aafaaq House, Cairo, 1st ed., 2019.
24. Mabaadi' Al-Falsafah, René Descartes, Translation: 'Othman Ameen, Al-Ahliyah House, Jordan, 2nd ed., 2023.
25. Madkhal 'ila Nazhariyyat Al-Ma'refah, Ahmed Al-Karsaawy, Takween Center for Research and Studies, 1st ed., 2019.
26. Al-Ma'refah fi Al-Islam Masaaderuha Wa-Majaalaatuha, Dr. 'Abdullah Al-Qarny, Al-Ta'seel Center, Jeddah, 2nd ed., 2009.
27. Maqaal 'an Al-Manhaj, Descartes, Al-Salafiyah Library, 1st ed., 1930.
28. Mawsou'at Al-Falsafah, Dr. 'Abdul-Rahman Badawi, Arabian Foundation for Studies and Publishing, Beirut, 1st ed., 1984.
29. Mawqif Al-'Aqli Wal-'Elmi Wal-'Aalim min Rabbil-'Aalameen, Mustafa Sabri, Contemporary Library, Beirut, 1st ed., 2012.
30. Naqdu Al-'Aqli Al-Mahdh, Emanuel Kanit, Translated by: Mousa Wahbah, Al-Tanweer House, 2015.